

الأسس التاريخية والفكرية للدولة السعودية



سَمِيحُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ السَّعُودِ

الأسس التاريخية والفكرية
للدولة السعودية

صاحب السمو الملكي
الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الكريم،
وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أيها الإخوة،

لقد أكرم الله عز وجل هذه البلاد، المملكة العربية
السعودية، بأن تتشرف بوجود مكة المكرمة، وفيها أول بيت
وضع للناس، ومهوى أفئدة المسلمين وقبلتهم التي يتجهون
إليها في صلواتهم ودعائهم، ومسجد نبيه عليه أفضل الصلاة
والتسليم، وبأن تكون هذه البلاد أيضاً منطلق الإسلام
والعروبة معاً. فلقد أنزل الله عز وجل في هذه الأرض العربية
القرآن الكريم بلغة عربية، وعلى نبي عربي، عليه أفضل
الصلوات والتسليم، وانتشرت قبائلها العربية في كل مكان
لتشكل النسيج الاجتماعي في كثير من الدول العربية. وقيادة
هذه البلاد وشعبها يفتخرون أن بلادهم هي موئل الرسالة
وموئل العرب، ويدركون أن تلك مسؤولية عظيمة يتحملونها
لخدمة وطنهم والإسلام والمسلمين.

ولهذا بنيت هذه البلاد على الدين الإسلامي، ونص نظامها
الأساسي في مادته الأولى على أن المملكة العربية السعودية دولة
عربية إسلامية ذات سيادة تامة، دينها الإسلام، ودستورها كتاب

الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. كما نص نظامها الأساسي في مادتيه السابعة والثامنة على أن الحكم في المملكة العربية السعودية يستمد سلطته من كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وهما الحاكمان على هذا النظام وجميع أنظمة الدولة، وأن الحكم فيها يقوم على أساس العدل والشورى والمساواة وفق الشريعة الإسلامية.

وفي هذه المدينة المباركة (طيبة الطيبة) بدأت نهضة الدولة الإسلامية الأولى على الكتاب والسنة النبوية والمبادئ الإسلامية؛ من العدل والأمن والمساواة. وفي هذه الأرض العربية التي هي منطلق العروبة والإسلام تأسست الدولة السعودية على المبادئ ذاتها متأسية بتلك الدولة الإسلامية الأولى وأسسها العظيمة التي تقوم على راية التوحيد، وتدعو إلى الدين الخالص من أي ابتداع أو ممارسات ليست في الكتاب أو السنة وأقوال السلف الصالح.

ففي هذه المدينة انطلقت الدولة الإسلامية الأولى؛ تنشر الدين والتوحيد، وتؤسس للاستقرار، وتوصل العلم الصحيح، وتشجع الإبداع والتفكير السليم. وأصبحت الجزيرة العربية ولأول مرة تعيش في استقرار ووحدة متماسكة، ذات دولة مركزية تقوم على الدين الصحيح، لاعلى أيديولوجية فكرية أو على عصبية، أو مصالح ضيقة لا تخدم الأمة. ومن الدروس المهمة التي تلفت النظر في بناء هذه الدولة الإسلامية ما قام به المصطفى عليه الصلاة والسلام من المؤاخاة المهمة بين الأوس والخزرج في المدينة المنورة ليصبحوا أنصاراً متحابين في الله عز وجل متجاوزين اختلافاتهم الماضية. وكذلك ما

قام به النبي ﷺ من توحيد الأنصار؛ وهم من العرب القحطانيين مع إخوانهم المهاجرين من قريش؛ وهم من العرب العدنانيين ليشكلوا اندماجاً عربياً واضحاً مبنياً على الدين لا على العصبية في تأسيس الدولة الإسلامية الأولى في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

وبعد ظهور الدولة الأموية وانتقال العاصمة من المدينة إلى دمشق ثم إلى بغداد في عهد الدولة العباسية، دخلت الجزيرة العربية عصراً مختلفاً عن عصرها الزاهي الأول؛ حيث انتشرت فيها الفوضى، وغابت الدولة، وظهرت إمارات متعددة اشتغلت بقتال بعضها بعضاً، وأصبح الحاج لا يأمن على نفسه في طريقه لأداء ركن مهم من أركان الإسلام. وعاشت الجزيرة العربية قروناً من قرون الظلام أصبحت بعيدة عن الأحداث التاريخية في عصرها الحديث، ولم تعد مركزاً للاهتمام والعناية، سوى القدوم إليها للحج أو زيارة الأماكن المقدسة مع الأخطار الشديدة. وأصبح قلب الجزيرة العربية منعزلاً عن العالم من حوله، منقسماً إلى إمارات متناحرة يعيش في أغلبه حياة ملأى بالخرافة وانعدام الوحدة التي عاشتها الجزيرة العربية في أيام الدولة الإسلامية الأولى، وأصبحت كل بلدة يحكمها فرد ينازعه آخر، وأصبحت القبيلة في حروب ضد الأخرى، وغابت الولاية وانعدم الأمن.

لقد أصبح في كل إقليم دولة، وفي كل قبيلة دولة، وداخل كل دولة من هذه دول متنافرة ومتناحرة، بسبب غياب الدولة

المركزية القائمة على راية الدين كما حدث في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين.

لقد دون المؤرخ عثمان ابن بشر كثيراً عن هذه المرحلة من خلال السوابق التي أثبتتها في تاريخه المشهور، وجاء فيها ما يدل دلالة واضحة على أحوال الناس في المنطقة في القرون التي سبقت منتصف القرن الثاني عشر الهجري/القرن الثامن عشر الميلادي. تلك الأحداث التي تتحدث عن عدم الاستقرار والقتل والتسلط وضعف الدين. وتوقف المؤرخ ابن بشر عند حادثة من الحوادث بوصفها نموذجاً يدل على الحالة السيئة للوضع السياسي، وعدها من الأحداث المهمة التي تشير إلى حجم حالة الفوضى في وسط الجزيرة العربية عندما اقتسم أربعة رجال الحكم في بلدة واحدة من بلدان نجد الصغيرة في سنة ١١٢٠هـ.

قال المؤرخ عثمان ابن بشر:

«فقسّموا البلد أربعاً كل واحد شاخ في ربيعها فسموا المربوعة أكثر من سنة، وإنما ذكرت هذه الحكاية ليعرف من وقف عليها وعلى غيرها من السوابق نعمة الإسلام والجماعة والسمع والطاعة، ولا تعرّف الأشياء إلا بأضدادها، فإن هذه قرية ضعيفة قليلة الرجال والمال وصار فيها أربعة رجال كل منهم يدعي الولاية على ما هو فيه»^(١).

(١) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد ج ٢ ص ٣٥٧.

استمرت أوضاع الجزيرة العربية المملّاء بالانقسام وعدم الأمن وضعف الدين، وانتشار الإمارات والتناحر بينها إلى أن ظهرت الدولة السعودية التي أعادت للمنطقة الدولة المركزية القائمة على الدين مثل ما حدث في العهد النبوي و عهد الخلفاء الراشدين.

وما قامت به الدولة السعودية أشار إليه المؤرخ الاجتماعي عبدالرحمن بن خلدون في رؤيته التاريخية العامة حين قال: «إن العرب لا يحصل لهم ملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم على الجملة»^(١). وهذا هو الذي تحقق حيث قامت الدولة السعودية على أساس الدين، وكان لها الأثر الكبير من حيث الأمن والاستقرار والازدهار.

تأسست الدولة السعودية في قلب الجزيرة العربية وعاصمتها الدرعية نسبة إلى الدروع أجداد أسرة آل سعود الذين أسسوها في منتصف القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي، وهم من قبيلة بني حنيفة المعروفة بتاريخها القديم في المنطقة، وقد عرف الوادي الذي يمر في قلب الدرعية باسمهم (وادي حنيفة)، تلك القبيلة التي ساندت الدولة الإسلامية الأولى. فلقد دونت كتب التاريخ كيفية إسلام ثمامة بن أثال الحنفي، ملك اليمامة، في عهد المصطفى ﷺ عندما رُبطَ بسارية في المسجد النبوي وأطلق النبي ﷺ سراحه ليعود مسلماً وليواصل رحلته إلى مكة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٣.

المكرمة حاجاً وملياً بصفته أول مسلم يطلق التلبية في بطن مكة المكرمة. ولقوة بني حنيفة ومنعتهم في اليمامة و ما تنتجه بلادهم من الحنطة والحبوب التي يعتمد عليها الحجاز في مؤونته، منع ثمامة التميميين عن قبيلة قريش معلناً بذلك أول حصار اقتصادي في الإسلام، ليرغم قريشاً على الإذعان للمصطفى ﷺ إلى أن أمر النبي عليه الصلاة والسلام ثمامة باستمرار التميميين رافة بالناس ورحمة بهم.

عاد أجداد أسرة آل سعود إلى منطقة اليمامة عندما دعاهم ابن عمهم ابن درع، حيث قدم مانع المريدي جد هذه الأسرة من بلدته المسماة بالدرعية في شرقي الجزيرة العربية إلى الدرعية الجديدة التي أقطعها لهم ابن درع في مكانين هما غصيبة والمليبيد اللتين حملتا الاسم الجديد القديم (الدرعية) نسبة إلى قبيلة الدروع من بني حنيفة، وذلك في عام ٨٥٠هـ. أخذت الدرعية الجديدة مكانها في قلب الجزيرة العربية فتأثرت بالأحداث والأوضاع من حولها، ولم تكن في بداية تاريخها بأحسن حالاً من البلدات الأخرى المجاورة من حيث التنازع على الرياسة فيها. وكان المحيط من حولها يمتلئ بالفوضى وعدم الاستقرار وتعدد الزعامات والإمارات المتناحرة وضعف الدين.

وعندما تولى الأمير محمد بن سعود بن محمد بن مقرن الإمارة دخلت الدرعية مرحلة جديدة تختلف عن سابقتها من حيث التأسيس للاستقرار، وتقوية دعائم الدولة والسلم

الاجتماعي. فكانت أول خطوة اتخذها الأمير محمد بن سعود عندما تولى إمارة الدرعية في عام ١٢٩١هـ (١٧٢٧م) أن وحد شطري الإمارة وهما غصيبة والمليبيد بعد انقسام طويل. ويأتي توحيد هذين الجزأين للدلالة على سياسة الأمير محمد بن سعود التي رمت إلى تغيير الحال الذي لم يكن مقبولا، وحرصت على إقامة دولة موحدة ذات مركز وقوة؛ لتخدم الناس وتحميهم وتشر الدين.

أصبحت إمارة الدرعية بفضل الله ثم نتيجة لسياسة أميرها محمد بن سعود إمارة مستقرة ومزدهرة من بين إمارات كثيرة في محيطها كانت تعاني الفوضى وعدم الاستقرار. وعرف عن الأمير محمد بن سعود تمسكه بالدين والتزامه به، وكثرة أعماله الخيرية. وشهدت الدرعية في عهد أميرها محمد بن سعود نشاطاً علمياً ملحوظاً لعدد من العلماء والقضاة، مثل: الشيخ عبدالله بن عيسى، والشيخ عيسى بن قاسم، والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن سويلم، والشيخ أحمد بن محمد بن سويلم.

وفي هذه الأثناء التي بدأت فيها إمارة الدرعية تستقر وتزدهر بفضل الله عز وجل ثم بفضل أميرها محمد بن سعود، كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يدعو إلى الدين ومناهضة البدع والخرافات في المنطقة نتيجة لما استفاده واستقر في ذهنه من دعوات سلفية صحيحة اطلع عليها خلال دراسته، ولما تلقاه على يد والده وعدد من العلماء

الأجلاء في مكة والمدينة والأحساء والبصرة، الذين كانوا يناهضون انتشار تلك البدع وغياب الدين الصحيح. وبدأ الشيخ محمد دعوته في حريملاء بشكل يسير، ثم انتقل إلى العيينة ليبدأ فيها بالدعوة وتطبيقها. وعندما كان الشيخ في العيينة التف حوله كثير من طلاب العلم، وكان بينهم أخو الأمير محمد بن سعود : ثيان ومشاري وابنه عبدالعزيز وعدد من علماء الدرعية، مثل الشيخ أحمد بن سويلم، وهو ما يدل على الأثر الذي أحدثه الأمير محمد بن سعود في إمارته من جهة، والتزام أسرته بالدين ومحبتهم للعلم الشرعي قبل انطلاق الدعوة من جهة أخرى.

ونظراً لاستقرار إمارة الدرعية في عهد أميرها محمد بن سعود واستقلالها عن أي نفوذ خارجي، وقوة حاكمها وعدله وتمسكه بالدين هو وأسرته، ولوجود عدد من العلماء الذين عرفوا بالالتزام وتعلمذوا على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العيينة؛ فقد رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب الانتقال من العيينة التي لم تستمر بالاستجابة لدعوته بسبب عدم استقلال القرار السياسي فيها إلى الدرعية التي أصبحت المكان الملائم لنشر الدعوة وتأييدها.

إن انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة إلى الدرعية كان على ما يبدو مبنياً على رؤية دقيقة ترتبط بالتاريخ والواقع. فالتاريخ سجّل ما قامت به قبيلة بني حنيفة من تأييد للدولة الإسلامية الأولى ونشر الدين والأمن

والاستقرار، وماقامت به أسرة الأمير محمد بن سعود من تأسيس إمارة قوية تتسم بالعدل والاستقرار.

أما الواقع فتمثل في وجود أمير أرسى دعائم الوحدة والاستقرار في إمارته المحدودة، والتزم بواجبات الدين ومتطلبات الدعوة، وأحب أهلها من العلماء والقضاة.

تمثل ذلك في الأحداث التي صاحبت قدوم الشيخ محمد ابن عبدالوهاب إلى الدرعية حيث نزل على أحد تلامذته من أسرة آل سويلم والتقى تلامذته الآخرين من أسرة أمير الدرعية. وعندما علمت زوجة الأمير محمد بن سعود (موضي بنت أبي وهطان) بوجود الشيخ أسرع في حث زوجها على اغتنام هذه الفرصة العظيمة لتأييد هذا المصلح الكبير في دعوته التي سبقت أخبارها إلى كل بيت في الدرعية قبل قدوم الشيخ محمد إليها.

وتأصيلاً للمبادئ الإسلامية في الحكم وثق الاتفاق بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب من خلال بيعة شفعية ارتسمت في نصوصها تلك الأصول الإسلامية لنشر الدين، وتأييد الدعوة إليه، وتأسيس دولة تقوم على ذلك. قال الأمير محمد بن سعود للشيخ محمد بن عبدالوهاب:

أبشر ببلاد خير من بلادك، وأبشر بالعزة والمنعة.

فقال له الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين،

وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها

ونصرها ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة

التوحيد، وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم.

هذا الحوار التعاهدي انطلق من أمير أسس إمارة قوية ومستقرة ومهيأة لحماية الدعوة وجعل اتجاهها نحو الدين أساساً من أسسها، ومن شيخ ناصر التوحيد ودعا إليه، وبشر بدولة مباركة تقوم على نصرة كلمة التوحيد. وتمت هذه المبايعة بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب - وهما من جذم^(١) العرب العدنانيين - دون أن يكون ذلك سبباً في حدوثها أو هدفاً من أهدافها؛ لأن الإسلام هو منطلقها لا العصبية أو النسب.

وأصبحت هذه البيعة ركناً أساساً من أركان الدولة السعودية إلى اليوم بحيث تلتزم بتأسيسها على الدين الصحيح. هذا الركن الأساس هو الذي ميز الدولة السعودية عن غيرها بحيث لم تقم على أيديولوجية فكرية أو عصبية قبلية أو إقليمية، وإنما قامت على أساس راية التوحيد التي يلتف حولها الجميع من أسر وقبائل، حاضرة وبادية. ومع أن الإمام محمد بن سعود من أسرة تعود في أصولها إلى بني حنيفة وتسكن في الوادي الذي يسمى باسمها فإنه لم يؤسس الدولة على عصبية أو قبيلته، بل تجاوز ذلك ليؤسسها على الدين ويلتزم هو وأبنائه وأحفاده إلى يومنا هذا بهذا التأسيس وبهذا

(١) الجذم - بكسر الجيم ويجوز الفتح - هو: الأصل. وجمعه: أجذام وجذوم. انظر القاموس المحيط ٢٠٢ (جذم).

الامتداد الذي يماثل ما تأسست عليه الدولة الإسلامية الأولى. وبهذه المبايعة التاريخية بدأت أسس الدولة السعودية الأولى التي تقوم على الدين. وانتشرت دعوة التجديد والإصلاح هذه في ظل دولة تسعى نحو تأمين الاستقرار للناس، وتوحيد البلاد للقضاء على الفوضى وانعدام الأمن. وتطورت الدعوة بمؤازرة الدولة، واكتسبت قوتها وانتشارها من قوة الدولة وامتدادها، الأمر الذي لم يحدث للحركات الإصلاحية الدينية الأخرى، وهو أن يكون تاريخ الدعوة مرتبطاً بتاريخ الدولة، وأن تظل الدعوة في حماية الدولة في كل عهودها، ومع كل حكامها، فالدعوة الإصلاحية لم تكن لتستطيع التأثير والانتشار إلا مع امتداد الدولة وانتشار نفوذها في شبه الجزيرة العربية^(١).

وثمة وجه للشبه بين قيام الدولة السعودية في العصر الحديث في شبه الجزيرة العربية، وبين ما حدث في عصر الرسالة الخاتمة والخلفاء الراشدين من توحيد شبه الجزيرة تحت راية الإسلام وعقيدته الصحيحة، وذلك لأن الإسلام هو العامل الأساس في توحيدها وقيام دولة مركزية، ولأن الدعوة الإصلاحية في العصر الحديث ليست سوى فهم صحيح للإسلام، وعودة إلى منابعه الأولى في إصلاح حياة الناس، والارتقاء بالمجتمع المسلم في شبه الجزيرة بعد قرون من التأخر والضعف وعدم الاستقرار.

(١) الدكتور عبدالله التركي. نشأة الدولة السعودية. بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام. دار الملك عبدالعزيز.

ولا شك في أن قيام الدولة السعودية الأولى وانتشارها الواسع في شبه الجزيرة العربية وتأثيرها الكبير في محيطها المجاور ونجاحها في إرساء الاستقرار والأمن والحكم الرشيد، وفي القضاء على الخلل السياسي في المنطقة وإيجاد الدولة المركزية الموحدة؛ أدى إلى نقمة الدولة العثمانية عليها فلم تقبل بهذه الدولة الجديدة التي تمتلك مقومات القوة والاستمرار. لذا بدأت الدولة العثمانية بإطلاق مصطلح (الوهابية) على تلك الدعوة لتنفير المسلمين من هذه الدولة ومبادئها الصحيحة. يقول خيرالدين الزركلي: «تحرك ساكن النقمة على آل سعود في عاصمة آل عثمان وانتشرت الخشية من أن يشتد ساعد قلب الجزيرة العربية فيسترد أهلها عزتهم ومنعتهم». وعمدت الدولة العثمانية إلى سلاحين، هما: إرسال الحملات العسكرية الضخمة التي ربما لم يرسل مثلها إلى دول غير مسلمة، واتخاذ سياسة الافتئات والتتفير والدعاية بأن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مذهب^{٢٨} خامس^(١).

ومع سقوط الدولة السعودية الأولى في عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م بسبب حملات الدولة العثمانية الضخمة، فإنها عادت مرة ثانية، ومرة ثالثة. ولقد توقع المؤرخ الفرنسي فيلكس مانجان الذي عاصر سقوط الدولة السعودية الأولى عودة الدولة السعودية مرة أخرى بسبب جذورها التاريخية وأسسها

(١) خيرالدين الزركلي. شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ج ٢ ص ٨٣٢.

الدينية المتأصلة في المنطقة. ولقد توصل إلى هذا الاستنتاج من خلال ما سمعه وتعرّفه آنذاك من القادمين من الدرعية إلى القاهرة بعد سقوط الدولة السعودية الأولى مباشرة، وكتب في عام ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م قبيل تأسيس الدولة السعودية الثانية:

«ولكن ذلك البلد يضم في جنباته بذور الحرية والاستقلال، فما زالت المبادئ نفسها موجودة، وقد ظهرت منها بعض البوادر، ومع أن أسرة آل سعود قد تفرقت، ومع أن الفوضى تعم بين الزعماء، فما زال هناك أس^س خصب^ة يمكن للزمن والأحداث أن تجعله يتفتح من جديد»^(١).

ولأن أسسها قوية وأصيلها وآثارها ملموسة وشاملة، عادت الدولة السعودية إلى الظهور من جديد على يد الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، وقام بتدعيمها ابنه الإمام فيصل بن تركي، ثم انتهت في عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩١م، ثم عادت مرة ثالثة على يد المغفور له الملك عبدالعزيز الذي تمكن هو ورجاله الذين لم يتجاوزوا الثلاثة والستين رجلاً من استعادة الرياض في عام ١٣١٩هـ / ١٩٠٢م، ثم توحيد البلاد وتأسيس المملكة العربية

(١) فيلكس مانجان. تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي على شبه الجزيرة العربية. (الرياض، دار الملك عبدالعزيز، ١٤٢٧هـ) ص ١٨٨.

السعودية بفضل الله عز وجل، ثم بمساندة عدد كبير من رجاله المواطنين من جميع أنحاء البلاد. يقول خير الدين الزركلي: «وثب عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود فقضى على من كانت الدولة العثمانية التركية تغذيهم وتمدهم وتقويهم... وتلفت الناس يتساءلون عن الوهابية: أين هي؟ فلا يجدونها، وإنما يجدون إسلاماً صحيحاً ومذهباً حنبلياً ينتشر بين سائر مذاهب الإسلام»^(١).

أين هي الوهابية التي يدعيها أعداء الدولة السعودية وأعداء مبادئها الصحيحة؟
يقول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - كما ورد في صحيفة أم القرى:

«يسموننا الوهابيين، ويسمون مذهبنا بالوهابي باعتبار أنه مذهب خاص، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان ييثرها أهل الأغراض... نحن لسنا أصحاب مذهب جديد، أو عقيدة جديدة، ولم يأت محمد بن عبدالوهاب بالجديد، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه السلف الصالح. ونحن نحترم الأئمة الأربعة ولا فرق

(١) الزركلي، ج ٢ ص ص ٨٣٣-٨٣٤.

عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة، كلهم
محترمون في نظرنا»^(١).

وقال رحمه الله:

«فهذا كتاب الطحاوية في العقيدة الذي نقرأه،
شَرَحَه الأحناف ، وهذا تفسير ابن كثير وهو
شافعي»^(٢).

وأنا هنا أدعو أولئك المنساقين وراء هذه الادعاءات
والاتهامات الموجهة ضد الدعوة إلى العودة إلى تراث الشيخ
محمد بن عبد الوهاب والبحث في ثنياه عن أي شيء يخالف
الكتاب والسنة النبوية المطهرة، ولن يجدوه. أين الجديد أو
الاختراع في هذه الدعوة حتى يطلقوا عليها أشنع الألقاب
والصفات، ويصمموها بأنها تتضمن أشياء غريبة خارجة عن
الدين الإسلامي؟!

إذا كانت الوهابية اتباع القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه
الصلاة والسلام وما كان عليه السلف الأول فنحن فخورون
بهذا، أما إذا كان الهدف التنفير ولصق التهم لمنع مسيرة دولة
تقوم على الدين الإسلامي والمصلحة الإسلامية العامة فنحن
رافضون لهذا المصطلح.

والدولة السعودية بسلوكها ومبادئها سلفية المنهج؛ لأنها
اعتمدت في تأسيسها على الدعوة الإصلاحية التي بدأها

(١) صحيفة أم القرى، ٦ من ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ، العدد ٢٢٩، ص ٣.

(١) صحيفة أم القرى، ٨ من ذي الحجة ١٣٥٢هـ، العدد ٤٨٤، ص ٣.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - التي تعني العودة بفهم الدين إلى فهم السلف الصالح؛ من الصحابة الذين لم تنشأ فيهم البدع والخرافات، والعودة إلى الكتاب والسنة، والصحيح من كلام أهل العلم المتقدمين. والسلفية ليست رجعية أو جموداً أو مجرد تقليد، أو أنها منافية للعقل كما يزعم بعضهم، بل هي منهج متكامل: عقيدة، وعبادة، ومعاملة، وتجديد وإبداع دون ابتداع، وضابطها تحقيق الالتزام الذي دعا إليه رب العالمين في قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ومن منطلق هذا التأسيس الواضح للدولة السعودية القائم على الكتاب والسنة ومنهج السلف، ومن منطلق الارتباط المميز بين الدولة والدعوة الذي لم يتأت لدعوة تجديدية أخرى من قبل، ومن منطلق استمرار الدولة السعودية على الرغم من المواجهات والمواقف، وعودتها إلى الظهور والاستمرار إلى يومنا هذا، ومن منطلق مضمين الحكم ومبادئه في المملكة العربية السعودية القائمة على المصادر الإسلامية الصحيحة، ومن منطلق أن هذه البلاد واقعة في معقل الإسلام وداره الأولى، وأنها قصبة الديار الإسلامية، وقبلية المسلمين في كل مكان على هذه الأرض، ومهوى أفئدتهم، وليس لهم قبلية غيرها؛ من منطلق ذلك وغيره فالمملكة العربية السعودية لها خصوصيتها التي ترتبط بتأسيسها ومكانها ورسالتها.

هذه الخصوصية ليست تقاليدَ عرفية أو موروثة اجتماعية أو عرقية، بل هي منحة ربانية وخصائص شرعية، وضمان من الله عز وجل، رحمة منه لهذه الدولة الإسلامية بتمسكها بدينه ورعايتها وخدمتها لحرمة الأمن بأمنه عز وجل، مهما كانت أحوال الناس من حولنا، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال المولى عز وجل: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

إن أولئك الذين ينادون بعدم خصوصية هذه البلاد إنما يريدون نزع أسسها الدينية عنها لبث الأفكار المستوردة إلى داخلها وخلختها بصفاتها قلب العالم الإسلامي ونبضه الذي لا ينتهي بإذن الله. والمهم أن ندرك أن هذه الخصوصية لا تفرقنا عن الآخرين، ولا تقلل من شأنهم، وإنما تأكيداً أمر مهم لضمان تلك الأسس وحمايتها.

إن هذه الدولة - المملكة العربية السعودية - التي هي امتداد للدولة السعودية الثانية والدولة السعودية الأولى قدرها واستمرارها بعد توفيق المولى عز وجل إنما هو بالمحافظة على دينها الذي هو سبب عزتها ونصرتها على مر الأيام والسنين والقرون. وإن هذه الدولة ما كان لها أن تجمع الناس في هذه البلاد وتوحدهم على تعدد قبائلهم وحواضرهم إلا على راية التوحيد والإسلام والمنهج الصحيح الذي قام به حكام هذه البلاد وحققوه ودعوا إليه منذ قيام الدولة السعودية الأولى،

والدولة السعودية الثانية، وفي عهد الملك عبدالعزيز، وأبنائه: الملوك سعود وفيصل وخالد وفهد - رحمهم الله، والملك عبدالله وولي عهده الأمير سلطان - حفظهما الله.

قال الملك عبدالعزيز في رسالة له موجهة إلى العلماء:

«إن أسباب الشر كثيرة ولا بد أن يحصل من الناس بعض اختلاف آراء، أحدٌ يبحث عن المخالفة، وأحدٌ يبحث عن التروُّس، وأحدٌ جاهل يريد الحق ولكنه خفي عليه سبيله فاتبع هواه، وهذا كله أمر مخالف للشرع، والحمد لله لسنا في شك من أمر ديننا، وتفهمون أنه منذ أظهر الله الشيخ محمد بن عبدالوهاب في قرن أطيب من وقتنا، ورجال أطيب من رجالنا، وعلماء أطيب من علمائنا، فسد الله به، وقام بهذه الكلمة، وجدد الله به أمر هذا الأصل، وأنقذ بأسبابه الناس من الضلالة، فبان أمره لأولي البصائر، وخفي ذلك على كثير من الناس، وعاند من أزاغ الله قلبه وأعمى بصيرته، وقبل هذا الحق ورضيه آباؤنا وأجدادنا وعلماء المسلمين فيما أتى به من الأصل والفرع»^(١).

وعلينا أن ندرك أن ما نحن فيه اليوم تحت ظلال هذه الدولة المباركة، والوحدة العظيمة، والمنهج السليم، ما كان إلا

(١) رسالة من الملك عبدالعزيز إلى من يراه من علماء المسلمين، في سنة ١٣٣٩هـ. التويجري، لسراة الليل هتف الصباح. ص ٥٢٠.

بفضل من المولى عز وجل أولاً، ثم بفضل جميع المواطنين في هذه البلاد الذين قدّموا الجهد والتضحية والالتزام الثابت بمبادئ الدولة الصحيحة. وإذا أمعنا النظر في صفحات تاريخ الدولة منذ الدولة السعودية الأولى وإلى يومنا هذا فسوف نلاحظ وبكل جلاء ما قام به المواطنون في هذه الدولة على مر زمن تجاوز القرنين والنصف من تعاضيد وتأسيس وبناء وتضحية من جميع الأسر والقبائل حاضرة وبادية في أنحاء هذا الوطن. لقد بنى هؤلاء جميعاً هذه الدولة من علماء و أعيان ومتخصصين ومعلمين وإداريين وعمال وحرفيين ومزارعين ورجال أعمال وفنيين وعامة الناس. وليس هناك أسرة أو قبيلة في هذه البلاد إلا ولآبائها أو أجدادها مشاركة فاعلة في توحيد البلاد وبنائها وتعزيز قوتها ورسالتها. والجميع في هذا الوطن جزء لا يتجزأ من هذا الإنجاز التاريخي لهذه الدولة المباركة، وأسهموا في بنائها ووحدتها وتماسكها.

قال الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في إحدى رسائله الموجهة لرجاله ومواطنيه:

«إننا نحن ولاة أموركم ما عندنا - إن شاء الله - شيء من الأمور التي لنا فيها هوى أو قصد يخالف الشريعة، وإنما قصدنا أن تكون كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر، وأيضاً قصدنا راحة المسلمين»^(١).

(١) رسالة من الملك عبدالعزيز إلى فيحان بن صامل وكافة إخوانه وجماعته من أهل رنية. في ٢ من صفر سنة ١٣٣٩هـ. عبدالعزيز التويجري، لسراة الليل هتف الصباح. ص ١٦٢.

وخاطب الملك عبدالعزيز جميع المواطنين في أثناء زيارته المدينة المنورة في محطة العنبرية في ٢١ من ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ بخطاب الوحدة الوطنية والأسس التي تقوم عليها الدولة، ونشر في صحيفة أم القرى قائلًا:

«إنني أعتبر كبيركم بمنزلة الوالد، وأوسطكم أخاً، وصغيركم ابناً، فكونوا يداً واحدة، وألفوا بين قلوبكم لتساعدوني على القيام بالمهمة الملقاة على عاتقنا، إنني خادم في هذه البلاد العربية لنصرة هذا الدين وخادم للرعية»^(١).

كما وجه الملك عبدالعزيز كلمة مهمة إلى مواطنيه في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م نشرتها صحيفة أم القرى، وجاء فيها:

«إن هذا الشعب عظيم عندنا من وجوه كثيرة، أهمها جوارهم بيت الله الحرام وحبهم لنا، والذي أوصي به هذا الشعب الاعتصام بحبل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] كما أوصيه بالتناصح فإن الدين النصيحة... إن على الشعب واجبات،

(١) صحيفة أم القرى، العدد ١٧٨.

وعلى ولاية الأمر واجبات، أما واجبات الشعب فهي الاستقامة، ومراعاة ما يرضي الله ورسوله ويصلح حالهم، والتآلف والتآزر مع حكومتهم للعمل فيما فيه رقي بلادهم وأمتهم، وأما واجبات ولاية الأمر فهي أن يقوموا بالواجب عليهم نحو شعبهم، وينصحوهم ويخدموهم، ويقوموا بكل ما فيه مصلحة المسلمين وفائدتهم»^(١).

إن وحدة هذه البلاد وتماسكها مستمر بإذن الله إذا حافظ الجميع على هذه الأسس، وما يتصل بها من خصوصية ومنهج، وعلى هذا التلاحم الذي غذاه الجميع من حاضرة وبادية، ولا يزال يغذيه الجميع اليوم من أبنائهم، معتمدين على الله عز وجل، ثم على أسس هذه البلاد التي تعلي راية التوحيد.

إن شرعية هذه الدولة هي في منهجها وتاريخها الطويل الذي بدأ ببينة شرعية للالتزام بالدين الصحيح منهجاً ومسلكاً في الحكم والبناء السياسي والاجتماعي، مع الأخذ بما يقره الدين من معطيات العصر الحقيقية التي تفيد الناس والمجتمع، لا من حادثات الفكر المستورد التي لا تؤدي إلا إلى محاولة إفراغ هذه البلاد من أسسها الصحيحة وإعادتها إلى الفوضى والتخبط الفكري الذي لانهاية لجدله ولا فائدة من مبادئه. ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) صحيفة أم القرى ٢٠ من صفر سنة ١٣٥٥ هـ. العدد ٥٩٤.

فهذا الزيد الفكري مآله إلى النهاية، أما ما ينفع الناس من أسس صحيحة ومبادئ سليمة فستمكث في هذه الأرض بإذن الله، في هذه الدولة المباركة في هذه الأرض المباركة.

هذه هي أسس المملكة العربية السعودية التي تتسم بالأصالة والمصلحة العامة، وترتبط بالدين الإسلامي وترعى مبادئه ومنهجه، وتعد من ثوابت المملكة العربية السعودية التي لا تتغير أو تتبدل لإرضاء تيارات فكرية أو توجهات سياسية أو مصالح ذاتية، وإنما تظل وفية لجذورها ومبادئها العظيمة القائمة على الدين وراية التوحيد التي لا تتبدل أو تتغير.